العولمة وأزمة غياب الهوية وتفشي الفردانية لدى البالغين

المدرس المساعد أماني نوري سعيد
قسم الترجمة / كلية الآداب / جامعة البصرة

المستخلص

إنَّ ظهورَ شبكات التواصل الالكتروني، ودخولَ الاجهزة الذكية الى حياة أبنائنا، يعد الحدث الابرز في شيوع حالة " الإغراق الثقافي" و "عولمة مصادر المعرفة "، حيث أصبح البالغون يستمدون جُلَّ افكارهم ومبادئهم ونظرتهم الكونية للحياة والمجتمع والدين مما يُعرَضُ لهم من ثقافات وآيدلوجيات شتى، لا يصلح معظمها أن يكون مصدرا للمعرفة المنضبطة. فأدَّى ذلك التشتت الموجه، وربما العبثي، إلى غياب الهوية لدى البالغين. وغياب الهوية هنا يعني عدم إدراكهم الغاية التي وجدوا لأجلها والأدوار الحقيقية التي أنيطت بهم، وهنا تكمن الأزمة الحقيقية التي يعاني منها معظم البالغين اليوم.

فجاءت هذه الدراسة لتسليط الضوء على مفهوم العولمة تاريخيا وفلسفيا ولبيان أثرها على العالم عموما وعلى المجتمع الاسلامي خصوصا من خلال الاختراق الثقافي المعولم. ويتمحور البحث حول واحد من أخطر تأثيرات العولمة على فئة البالغين وهو غياب الهوية الفكرية والثقافية لديهم وضعف أو غياب المواجهة لها. ويروم البحث ايضا الى تسليط الضوء على مفهوم "الفردانية" الذي يُعَدَّ من أبرز مظاهر غياب الهوية لدى الفئة المذكورة وأثره على واقعهم كأفراد وعلى واقع المجتمع الذي ينتمون اليه.

ولتحقيق ما تصبو اليه الدراسة يقوم الباحث بعرض الدراسات البحثية المتاحة حول الظاهرة محل البحث؛ ومناقشتها لمعرفة الأبعاد المتنوعة من غياب الهوية، إن وجدت، ومدى تفشي ظاهرة الفردانية في مجتمعنا العربي والإسلامي. وبناءً على ما تقدَّم، يسعى الباحث لبيان السبل الواجب اتباعها من قبل المؤسسات التربوية المختلفة كالأسرة والمدرسة والجامعة والمسجد والإعلام للحيلولة دون الوقوع في أزمات فكرية وسلوكية أكبر تتنافى مع الهوية الحقيقية للمجتمع قيد الدراسة.

الكلمات المفتاحية: العولمة، الفردانية، الهوية الثقافية، الحداثة.

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٢/٠٣/٢٨ **تاريخ القبول:** ٢٠٢٤/٠٥/٠٦

Globalization, Crisis of Identity Loss, and the Spread of Individualism Among Adults

Asst. Lect. Amani Nouri Saeed
Department of Translation / College of Arts / University of Basrah

Abstract

The rise of electronic communication networks and the proliferation of smart devices in our children's lives have significantly contributed to the widespread phenomena of "cultural inundation" and the "globalization of knowledge sources." Adults increasingly derive their ideas, principles, and worldviews concerning life, society, and religion from a wide array of cultures and ideologies presented to them, many of which lack the rigor and coherence needed for disciplined knowledge. This targeted, and sometimes chaotic, dissemination of information has led to a profound loss of identity among adults. This loss manifests as an inability to grasp their purpose and understand their true roles, exposing a critical crisis affecting many adults today.

This study aims to explore the concept of globalization from both historical and philosophical perspectives and to assess its impact on the world at large and on the Islamic community in particular, through the lens of cultural encroachment. The research zeroes in on one of the most pressing consequences of globalization for adults: the erosion of intellectual and cultural identity and the resulting inadequate or ineffective responses to this erosion. Additionally, the study will examine the concept of "individualism," a key aspect of identity loss within this demographic, and its effects on their personal experiences and the communities they belong to.

Keywords: Globalization, individualism, cultural identity, modernity.

Received: 28/03/2022 **Accepted: 06/05/2024**

المبحث الأول:

لمحة مختصرة عن مفهوم العولمة

واجه الباحثون على مر السنين إشكالية وجود تعريف متفق عليه فيما يتعق بالعولمة.

ولإجل تحرير مضمون مصطلح "العولمة" لابد ان نميز بينها وبين "العالمية" : فالعالمية هي التفاعل الاختياري والحر بين الحضارات المختلفة والذي لا ينفي تمايزها في المحليات الخصوصيات (محمد عمارة, ١٩٩٩). أما العولمة فهي اجتياح حضارة لحضارة اخرى , والهيمنة عليها والقضاء على خصوصيتها. ففي العالمية يختار الانسان بينما في العولمة لا خيار له بل ينضوي قهرا تحت الخيمة التي صنعتها له القوى الغالبة. ولعل هذا واضح من خلال الوزن الصرفي لكلمة "عولمة" وهو "فعللة" على وزن "قولبة" أي وضعه قسرا في قالب لم يكن ملائما له! (نفس المصدر). يقول محمد عمارة (١٩٩٩, ١٤) :

إن العولمة هي اجتياح الشمال للجنوب. اجتياح الحضارة الغربية ممثلة في النموذج
الأميركي , للحضارت الاخرى. وهي التطبيق العملي لشعار "نهاية التاريخ" الذي
أرادوا به الإدعاء بأن النموذج الغربي الرأسمالي هو "القدر الأبدي " للبشرية جمعاء. وهو

تطبيق يستخدم في عملية الاجتياح اسلوب "صراع الحضارات" الذي يعني في توازن القوى الراهن أن تصرع الحضارة الغربية ما عداها من الحضارت. وقد صرح الدكتور تركي الحمد في مؤتمر القاهرة (١٩٩٨) الذي عقد عن العولمة , أن العولمة الثقافية التي افرزتها الحداثة الغربية في طريقها الى ان تصبح ثقافة كونية شاملة ولن تستطيع أي ثقافة أخرى الوقوف بوجهها أو ايقافها شئنا ذلك أم أبينا.

برزت أدبيات العولمة في المدة ما بين ١٩٨٠-٢٠٠٠ وهي الحقبة التي ساد فيها هيمنة القوة الامبريالية المتمثلة بأميركا بالدرجة الاولى. وأول من نظر في قضايا العولمة هو عالم الاجتماع رولاند روبرتسون (١٩٩٢) حيث برز موضوع العولمة والثقافة اولا في اعماله التي جمع فيها بين الدين وعلم الاجتماع. ويرى أغلب الباحثون ان العولمة هي نتاج تغير تكنولوجي يمثل التواصل العالمي فيها الخيط الذي يربط حلقات العولمة كافة (جان نيفين بيترس) وقد ساعدت الثورة المعلوماتية الالكترونية وتوسع الحركات التجارية على بناء البنية التحتية للعولمة, ، فأدَّت الى ما أسماه أوهماي (٢٠٠٥) بإعادة تشكيل الدول وظهور "عالم بلا حدود"

وأصبح الإطار المعرفى الذي حدده النظام الرأسمالى مقبولاً لدى سائر الشعوب، وهو فى هذه الحالة لم يكن فى صورة ظاهرة تهدف الى إخضاع عقول هذه الشعوب لتقبل النظام الرأسمالى فحسب، بل إعلاناً للتكييف حقيقيا مع فكرة الانخراط فى الحركة الرأسمالية وسيرورتها كما يحلو للغرب. (المرسي, ٢٠٠٥)

المبحث الثاني:

العولمة الثقافية:

تشكل العولمة الثقافية إحدى أخطر مستويات العولمة عموما, و تعني فرض هيمنة ثقافية وقيمية واحدة من خلال اخضاع العالم لحضارة واحدة. (هندي, ١٩٩٩). وقدعرف

محمد عابد الجابري (٢٠٠٣) العولمة الثقافية على انها عملية تعميم لنمط حضاري معين على باقي بلدان العالم, وهي بذات الوقت تسعى ايديولوجيا "لأمركة" العالم والسيطرة عليه ثقافيا وفكريا.

إذا العولمة الثقافية هي غزو ثقافي يخترق الأفراد والأمم، يهدف الى تأسيس ثقافة معولمة ومهيمنةعلى كل الثقافات. وهي تحول للثقافة من اطارها القومي الخاص الى اندماج في ثقافة حضارات اخرى وهيمنة ثقافة احادية كبرى.(محمد, ٢٠١٠). وغالبا ما يحدث ذلك بالقوة, كما هو الحال في هيمنة الثقافة الاميركية بشكل خاص على ثقافات وحضارات الشعوب الاخرى المغلوبة. إذا, العوملة الثقافية هي غزو ثقافي يؤثر على ذاتية الأفراد والأمم، ويتميز بإحتكار المعلومات ووسائل االتواصل العابرة للحدود الشخصية للأفراد والحدود الوطنية للشعوب. وتشمل الثقافة منهجية التفكير واسلوب العيش واللغة والقيم والعادات والتراث الحضاري بشكل كامل. وبما أن الحضارات مختلفة بطبيعة الحال من حيث اللغة والعادات والتقاليد والقيم والمبادئ والمواريث الدينية والاعراف الاجتماعية, فقد امتازت الثقافات تبعا لذلك, وهذا ركن ركين في تميز النفس البشرية الانسانية. وعليه, ف علمنة ثقافة حضارة ما يعني هيمنتها على الثقافات الاخرى وهذا لا يتم الا من خلال انسلاخ الافراد عن نسيجهم الثقافي وهذا يستتبع اثارا اخرى خطيرة كالانسلاخ عن الهوية واستيراد الافكار والثقافات التي لا تتناغم مع طبيعة حضارة الافراد وقيمهم.

مرت العولمة الثقافية, كما يصرح بول هوبر(٢٠١١), بثلاث مراحل تاريخية رئيسة:

مرحلة ما قبل الحداثة (قبل ١٥٠٠)

المرحلة الحديثة (١٥٠٠-١٩٥٤)

المرحلة المعاصرة (١٩٥٤ وما بعدها)

ففي مرحلة ما قبل الحداثة, فإن أبرز تجليات العولمة بدأت في الهجرات البشرية, وظهور الديانات لمختلفة والانظمة الامبريالية الاولى وتطور الحركة التجارية بين البلدان. أما المرحلة الحديثة فقد ساهم الاستعمار الاوربي, والتطورات الصناعية والاقتصادية وانتشار مظاهر الحداثة في ترسيخ معالم العولمة الثقافية بين الشعوب المختلفة. وبدأت في هذه الحقبة ظهور وانتشار الكثير من الانساق الفكرية والايديولوجيات المختلفة كالليبرالية, والماركسية, والشيوعية, والاشتراكية والديمقراطية وغيرها, الى جانب انتشار العلوم الغربية المختلفة, وشيوع اللغة الانكليزية في البلدان الافريقية والاسيوية, وانتشار الديانة المسيحية فيها. أما المرحلة

المعاصرة فهي مرحلة اتساع وقوة التدفقات الثقافية والتكنولوجية المختلفة وسهولة انتقالها بين دول العالم الى جانب التفاعل الثقافي والاستهلاكي الكبير. (بول هوبر, نفس المصدر)..

لقد التطور التكنولوجي ادى الى زيادة وتنوع وسائل التواصل، والتي أسهمت بدورها في التقريب بين الهويات الثقافية المختلفة وغلبة الثقافة التي تمتلك وسائل تأثير اكبر مما ادى الى انتشار وهيمنة منظومة ثقافية غربية أحادية على شعوب العالم في ثقافاتهم و هوياتهم.وتعد شبكة الانترنت أكثر وسيلة مؤثرة في مجال العولمة الثقافية لما لها من تأثير مباشرووواسع في نشر الافكار والصور والافلام والاخبار والنشاطات الثقافية المختلفة, ناهيك عن الأثر السلبي لهذه الشبكات ودورها في ضخ التضليل الاعلامي والتزييف المعلوماتي وانتشار المواقع الاباحية التي نخرت النسيج الاخلاقي والقيمي للافراد. أما الفضائيات فقد أحدثت ثورة وانقلابات اخلاقية وتربوية هائلة لدى ابناءنا وأسرنا ومجتمعنا بشكل عام, فالمادة المعروضة في الفضائيات غالبا مؤدلجة سياسيا وفكريا وقد فرضت بالقوة وأصبحت في متناول الغني والفقير والكبير والصغير. إذا العولمة الثقافية ثمرة مباشرة من ثمار التطور والتقدم العلمي والتكنولوجي العالمي. أما أخطر غفرازات العولمة الثقافية على الافراد عموما وعلى الامة المسلمة خصوصا فيتجلى في شيوع ظاهرتي: غياب الهوية و تفشي الفردانية.

المبحث الثالث: ١:

أزمة غياب الهوية

ما هي الهوية؟ -الهوية هي مجمل السمات التي تميز شيئا عن غيره او شخصا او مجموعة عن غيرها (المشاي, ٢٠٠٤, ص ١٦) وهذا يشمل العادات والتقاليد والقيم واللغة والدين وقضايا الماكل والملبس والعديد من الامور المعنوية و المادية والسلوكية التي تميز مجموعة عن مجموعة اخرى. و في ظل غياب الوعي الثقافي, قد تكتسب الشعوب هويات جديدة وتنتزع أخرى. ويبدو تأثر الهوية واضحا لدى الشعوب المقهورة (المغلوبة)الضعيفة, فكلما تعرضت هذه الشعوب للغزو الثقافي كلما تلاشى جزء من ملامح هويتها بل وفي حالات كثيرة تمسخ وتستبدل بهويات جديدة ليست من سنخها. يقول عبد الوهاب المسيري (٢٠١٣:) لا يمكن للانسان ان يكون مبدعا الا اذا نظر للعالم بمنظاره هو لا بمنظار الاخرين. فأذا نظر بمنظار الاخرين أصبح تابعا لهم وكرر ما يقولون وفكر داخل الأطر التي يحددوها هم. وهذا ما حدث للكثير من المفكرين العرب عندما يسافروا الى الغرب. ففي خطاب للكاتب والسياسي الاميركي لورد ماكولي للبرلمان الانكليزي (١٨٣٥) قال: "لقد سافرت في الهند طولا وعرضا , ولم أرى شخصا واحدا يتسول أو يسرق. لقد وجدت هذا البلد ثريا بدرجة كبيرة, ويتمتع أهله بقيم أخلاقية عالية, حتى أنني أرى اننا لن نهزم هذه الامة, إلا بكسر عمودها الفقري: وهو تراثها الروحي والأخلاقي. لذا اقترح ان يأتي نظام تعليمي جديد ليحل محل النظام القديم لأنه لو بدأ الهنود

يعتقدون أن كل ما هو أجنبي وانكليزي جيد و أحسن مما هو محلي, فإنهم سيفقدون احترامهم لأنفسهم وسيصبحون ما نريدهم أن يكونوا" (ذكره المسيري,المصدر السابق, ص ١٤٨). وبالفعل, هذه هي المخططات الاستعمارية التي يستعملها الغرب في تدمير شعوبنا وطمس هويتنا وحضارتنا.

المبحث الثالث: ٢:

أثر العولمة على الهوية الثقافية:

تبرز الاثار السلبية للعولمة على هوية الافراد بوضوح فيما قاله صامويل هنتنجتون "أن الاعتقاد بضرورة تبني الشعوب غير الغربية لقيم ومؤسسات وحضارة غربية لهو أمر غير أخلاقي بالنظر الى نتائجه" فالعولمة الثقافة تهدف الى إقصاء الهويات والخصوصيات الى حد تفقد فيه المجتمعات أي هوية شخصية او ثقافة ذاتية. ويمكن تلخيص تجليات تأثير الثقافة المعولمة على الهوية بما يلي:

١.تاريخيا: تهدف العولمة الثقافية الى احداث خلل في منظومة الامم التاريخية من خلال المساس بالقيم والاحداث التاريخية المميزة للشعوب وطمس هويتها واضعاف تأثيرها على الأفراد. فلم يعد الموروث التاريخي مؤثرا من ناحية استلهام العبر والدروس, إذ بدأت المخططات لتشويه تاريخ الامة-بالاخص الامة العربية المسلمة- من جهات متعددة عن طريق بث الافكار المعولمة من خلال وسايل التواصل والفضائيات والقصص والمؤلفات ، الى جانب قمع الحقائق التاريخية وتزويرها ووصفها بالرجعية والعصور المتخلفة. والمعروف أن تاريخ أي أمة هو عنصر مهم للمحافظة على هويتها الثقافية ، وطمس تاريخ امة ما أو التلاعب به وتزويره يعد عاملا من عوامل تهديد الهوية الحضرية والفكرية و الثقافية لتلك الأمة. وقد طالت يد العبث الثقافي المعولم حتى عادات المأكل والملبس وطبيعة الألعاب التي يمارسها الصغار والشباب, بل وحتى طبيعة الأسماء التي أصبحت تعكس بيئات ثقافية مغايرة لبيئتنا الأصيلة, فظهرت لدينا اسماء من قبيل ناتالي وهيلين وغيرها مما نراه في الافلام والمسلسلات التي تعرض على الفضائيات, ولم يعد الاباء ملتفتين الى الاثر السلوكي والرحي للاسم على صاحبه كما أخبرنا بذلك الوحي " لكل امرء نصيب من اسمه"..

٢. على المستوى الأيديولوجي: يقول محمد بن سمينة (٢٠٠٦—٧٩-٨٠): " تعني الهيمنة الثقافية لظاهرة العولمة هيمنة النموذج الأميركي تحديدا على ثقافات الأمم وذلك باستهداف الثقافات المحلية والاقليمية بالزوال" , فالتغريب يعد من أخطر أشكال الغزو الثقافي وأشدها شراسة ضد الهوية الثقافية. ومن الادوات الاساسية التي يستخدمها الغرب لفرض هيمنته الثقافية هو فرض اللغة الاجنبية واعطائها قيمة مركزية اعلى من لغة الافراد الام وهذا يعد عاملا خطيرا في خرق النسيج الفكري والثقافي للشعوب. فاللغة هي العمود الفقري للدين والفكر والتراث الحضاري بأجمعه وهي جزء من هوية الفرد وأحد مقومات هويته الثقافية هي أداة التفكير التي تحدد المفاهيم والقيم والمعاني (السحمرائي,٢٠٠٢) . وقد تنبه العدو الى خصوصية اللغة

العربية-تحديدا- وأثرها في حضارة المسلمين وأسقنوا انها اول جدار صد عليهم تدميرها واستبدالها باللغة الاجنبية التي لا تحمل أي مزايا حضارية وليس فيها أي اثار تربوية وروحية وعقلية على حياة الاخرين كما للغة العربية. يقول بوختيل معطي (٢٠٠٥) وأكبر تأثير للعولمة الثقافية على اللغة هو تغيير المفاهيم باصطناع مصطلحات جديدة لم تكن معروفة لدى الشعوب وبذلك يبدأ تداولها من غير فهم غاياتها وتجد ميدانها في خدمة مؤسسيها، مثل وصف القضية الفلسطينية بالأرهاب، والعراق ولبنان وإيران بمحور الشر، و هي تمرر كل ذلك بأسخدام مصطلحات حقوق الانسان لاضفاء صفة الشرعية لما تفعله وتقوله.

٣.روحيا, تسعى العولمة الثقافية الى تجريد الانسان من الجانب الروحي وابراز وجوده المادي في أعلى درجاته وتجويله الى كائن مادي مستهلك لاهث وراء المتع المادية غير مكترث بحاجاته الروحية والعقلية رغم عطشه الروحي الى الطمأنينة والاكتفاء والهدوء النفسي. وهذا إنعكاس للجذور الفكرية والفلسفية لهذه الثقافات التي تتمحور حول النزعة المادية النفعية بالدرجة الاساس غير مكترثة بالجوانب الانسانية والاخلاقية والروحية للانسان.

٤.على المستوى الاقتصادي , يظهر تأثير العولمة الثقافية على الشعوب المغلوبة في نمط الاستهلاك المادي الذي أصبح سمة بارزة في مجتمعاتنا, من الناحيتين الكمية والنوعية. فلم تعد أسواقنا تستورد الثياب والسلع الملائمة لقيمنا وحضارتنا ومبادئ ديننا, إنما صار المدار والضابط هو مدى ملائمتها للذوق الحداثي الغربي, فصار الافراد يؤتدون الثياب المقطعة على غرار ما يفعل بعض الافراد من الطبقة المتدنية في البلدان الغربية, وبدأت النساء تتجه الى اختيار الثياب المتبرجة لمواكبة التقدم المزعوم والذي تصدره لنا الفضائيات بأشكال وصور مختلفة. وهذا يمثل جانبا من جوانب التبعية للثقافة الغربية.

٥.أخيرا وليس اخرا , يتجلى تأثير الثقافة المعولمة على الشعوب في خرقها للنسيج الاجتماعي للأمم من خلال اختراق البيوت وتفكيك الأسر وإضعاف الروابط العائلية وزرع روح الأنانية بين الأفراد. فمن خلال إغراق البيوت بالفكر الاجتماعي الغربي الذي يتمركز حول فكرة الفردانية واللاانتماء, نشأ لدينا جيل لا يعبأ بالعلاقت الاسرية والالتزامات الاجتماعية, جيل أناني متمركز حول ذاته لا يعرف التضحية ولا يملك الشعور بالمسؤولية تجاه الاخرين او تجاه ما يدور حوله.

المبحث الرابع:

تفشي الفردانية

الفردانية: نظرة تاريخية

لا يخفى على الانسان المطلع والمتأمل في أحوال المجتمعات الحديثة تفشي ظاهرة الفردانية في المجتمع. وقد أقترنت هذه الظاهرة بعصر الثورة الصناعية، عندما بدأ الافراد بالسفر بعيدا عن أسرهم للعمل في المصانع والمعامل، ثم مالبثت ان تلقت هذه الظاهرة تركيزا فكريا وفلسفيا. بالاخص ضمن الفلسفة الاميركية والفرنسية, باعتبارها سمة انسانية تجعل الفرد قيمة مركزية عليا فوق كل اعتبار (عاشور, ٢٠٢١, الفردانية

وأزمة الانسان المعاصر) فمع ظهور الفلسفة البراكماتية لوليم جيمس والفلسفة الوجودية لدى نيتشة تحول التركيز من الكلي والمطلق الى الذات والفردانية, بعبارة اخرى الى الانسان (الكحلاني,٢٠٠٤). والفردانية, كما يصفها الكحلاني(نفس المصدر, ١٠) هي مذهب يرى "أن الفرد أساس كل حقيقة وجودية" وأن غاية المجتمع هو الاهتمام بمصلحة هذا الفرد وتحقيق رغباته. وتعد الفردانية من أبرز اعمدة الفكر الليبرالي الحديث الذي يزعم أن حور قضيته الحرية الشخصية للانسان والدفاع عن حقوقه وخصوصيته. ويصف بول تيليش الفردية بأنها " التأكيد الذاتي للذات الفردية مقابل النزعة الجماعية". وعلى الرغم من ان أول من رسخ فكرة الفردانية في الفكر الليبرالي هو جون ستيوارت ميل من خلال كتابه "الحرية" عام ١٨٥٩ والذي كان يركز فيه على مفهوم الحرية الشخصية للفرد بما يشمل حرية التصرف والاعتقاد على اعتبارهما سلوكان مرتبطان بطبيعة الفرد الشخصية, إلا ان جذور الفردانية تمتد من فكر ستيرنر (١٨٥٦) صاحب كتاب الفردانية المطلقة والذي أسس لفكرة ان الفرد موجود بذاته و لذاته فلا معنى لتحميله مسؤولية حمل الرسالة التي تلقيها على عاتقه الدولة والمجتمع فليس مهمته سوى انشراح صدره وازدهار شخصيته (فتحي التريكي,٢٠٠٩). وهذه نظرة عبثية في الواقع لانه نحى كل سلطة أخرى كالاخلاق والعدالة والمجتمع والاسرة اعتبرها أمورا وهمية، وجعل الحقيقة الوحيدة والأساسية هي "الأنا" وفي بداية القرن العشرين , لاقت الفردانية انتشارا وقبولا في الفلسفتين الفرنسية والأميركية. ففي فرنسا, أشهر الفيلسوف شارل رينوفييه (١٩٠٣) بكونه رائد النزعة الفردانية الذي كان يرى الفرد قيمة مطلقة فوق كل اعتبار. أما في أميركا, فقد غزت الفردانية المجتمع الاميركي عبر أفكار سان سايمون (١٨٢٥) ثم انتشرت بشكل قوي تحت أفكار والت ويتمان الذي تمحورت أفكاره حول حب المغامرة والاعتزاز بالحرية الشخصية والتي اصبحت فيما بعد سمة بارزة في المجتمع الاميركي (الكحلاني, ٢٠٠٤)

ويرى الفيلسوف الإنكليزي "برتراند راسل" في كتابه "ما الذي أؤمن به" أن المسيحية كانت عاملا مهما في انتشار الفردانية، لأنها عمقت فكرة الخلاص الفردي، فيقول: "فأكثر الرجال فضيلة الذين يعتزلون العالم، لم تقدس الكنيسة يوما رجلا لأنه نظم الموارد المالية، أو القانون الجنائي، أو النظام القضائي، إن مساهمات كهذه تخص السعادة البشرية لا تُعد مهمة، ومع هذا الفصل بين الإنسان الأخلاقي والاجتماعي، ازداد الفصل بين الروح والجسد، فالأخلاق المسيحية قد جعلت بنفسها بشكل كامل فردانية، واعتقد أن النتيجة الواضحة لكل هذه القرون من المسيحية أن البشر أصبحو أكثر أنانية، وانغلاقا على أنفسهم" و هذا يؤكد أن البيئة الغربية كانت مشجعة لنمو النزعة الفردانية. (عاشور, ٢٠٢١). و أمام التقلبات الفكرية المتنوعة التي حصلت في ميدان الفكر الغربي , بدأ الناس يفقدون الثقة في ايجاد حلول لأدوائهم الشخصية والاجتماعية, فـ"الأفكار القومية كانت وراء اشتعال الحربين العالميتين اللتين حصدتا أرواح عشرات الملايين، والشيوعية كانت سجنًا للإنسان عندما طُبقتْ، والرأسمالية شجعت على الاستغلال، والتجارب الدينية كانت في أكثرها مخيفةً، كل هذه المآسي دفعت الإنسان للثقة في ذاته دون غيرها" (عاشور, ٢٠٠٤) ."

وهكذا ازدادت الرغبة في التحرر من الروابط الجماعية؛ لوتطورت الى عدم الاهتمام بالقضايا المجتمعية الكبرى ثم التخلي عن الروابط الأسرية او التنصل منها، ثم تبعه العزوف عن الزواج تهربا من المسؤولية الاسرية، ورمي كبار السن في دور العجزة ونحو ذلك.

المبحث الخامس:

الفردانية والمجتمعات العربية المسلمة

عاش الانسان في المجتمعات التقليدية عموما داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية والأسرية المتعددة ولا يكاد ينسلخ من انتماءاته الدينية والاخلاقية والعرفية الثابتة الذي يشعر المرء من خلالها بالتماسك والحماية. وحين ظهرت الموجة العلمانية الحديثة, بدأ التوجه يتمركز حول فكرة الانسان الاحادي ذو البعد الواحد, الذي يرغب بالانفصال عن التزاماته وقيوده الاجتماعية. ولم تكن فكرة التمركز حول الفرد والفردانية موجودة في مجتمعاتنا العربية, والاسلامية على وجه التحديد , ولم يكن الفرد غاية بحد ذاته بل وسيلة لتحقيق مصلحة الجماعة من خلال قيامه بجملة من الادوار والالتزامات سواء داخل اسرته ام في اطار مجتمعه (بركات, ١٩٨٤). ويذكر بركات أن الثقافة العربية تولي اهتماما للجماعة أكثر بالفرد, وبالتكافل والتضامن أكثر من حاجات الفرد وأنشطته, واهتماما أكبر بالتواصل الاجتماعي بين الافراد مقارنة بأستقلاليته, فالحاجة المجتمعات العربية للتكاتف والانتماء اكثر اهمية من الحاجة للانجاز الشخصي. لكن مع تقدم الزمن تلاشت هذه الروح الانتمائية شيئًا فشيئًا، وصارت جذوتها تخبو رويدًا رويدًا حتى بلغنا في عصرنا هذا من الانفصال عن قضايا الأمة والمجتمع والتفكك العائلي ، والانغلاق على الشؤون الشخصية مستوى لم تصله البشرية طيلة تاريخها، وهو ما عرف فيما بعد بـ"النزعة الفردانية". وينبغي التفريق هنا بين الفردانية ك ، كرؤية كونية وفلسفة اجتماعية تهدف إلى تحويل أفراد المجتمع إلى عناصر منفصلة عن بعضها، وهو ما يشابه "نظام كبسولات رائدي الفضاء" كما وصفها عالم الاجتماع جيل ليبوفتسكي (٢٠١٨: ٣٩ص) ، وبين حق الإنسان بالتمتع بمساحته الشخصية الخاصة ، والتي قد يصطلح عليها أحيانا بمصطلح الفردانية او التفرد. وعلى المستوى الديني, لم يربي الاسلام الفرد على ان يختزل اسلامه وتدينه باستقامته الفردية, فالدين لا يقتصر على العبادات الفردية من صوم وصلاة وذهاب للمسجد, بل اراد من الانسان ان ينتقل من الفردانية الى الرسالية من اجل احقاق الحق واقاة العدل وعمارة الارض التي هي من اعظم واجباته كفرد مسلم لان هذا هو الذي يحدث الاثر الاكبر في الامة وفي العالم ككل . والمتأمل في الاحاديث الشريفة يرى تأكيدا عظيما على نبذ الفردانية وتعزيز روح الانتمائية والتواصل والارتباط بين الافراد. يقول نبينا الاعظم محمد صلى الله عليه اله "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" وهذا مبدأ توجيهي سلوكي عظيم يؤكد على أن الانسان بوصفه خليفة الله في أرضه (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) فهو مرتبط بجملة من المهام والمسؤوليات ضمن دائرة وجوده الشخصية والاسرية والوظيفية والمجتمعية والقيادية. فلا ينفك عن

المسؤولية تجاه نفسه ومن حوله في كل زمان ومكان, وهذه الرؤية تنبذ لدى الانسان الشعور بالانانية والرغبة في تحقيق المطامع الفردية على حساب مصلحة الجماعة. فعمارة الارض وتحقيق التكامل الذي هو غاية الوجود لا يتحقق بغير العمل الجاعي الانتمائي.

وعلى المستوى الاسري العائلي, نرى ان التفكّك والعتمة والتوتّر والاضطراب أصبحت سمة بارزة في المؤسّسة العائلية في أغلب مجتمعات الغرب والشرق معاً. وهذا التفكك والاضطراب الذي طال العائلة لابد وان ينعكس سلبا على مجتمعنا العربي المسلم كما حصل ويحصل في المجتمعات الغربية. وينبغي الاشارة هنا الى ان طبيعة الشريعة الاسلامية التي تمثل دستورا متكاملا للحياة البشرية تخالف الكثير من الظواهر والمفاهيم التي افرزتها الحداثة الغربية كالفردانية. بل على العكس, فأن من أمارة ايمان المرء وتقواه هو حفظه لصلة الرحم مع أهله وأقرباءه, وحسن تعامله مع أخيه المسلم. ففي الحديث المروي عن النبي محمد (ص) : من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في عمره, فليصل رحمه" , نجد ان فكرة الفردانية مناقضة لهدي النبي الذي يأمر بصلة الارحام ويجعله مرتبطا بقضايا كبرى مصيرية, فكأنه ينزل أثرها الايجابي على أعظم محبوبات الانسان التي تشغل حياته: البسط في الرزق والعمر. وفي حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) :

من سعى في حاجة أخيه المؤمن فكأنما عبد الله تسعة آلاف سنة، صائما نهاره قائما ليله, وعن الأمام الصادق (عليه السلام) "من سعى في حاجة أخيه المسلم طالبا وجه الله كتب الله عز وجل له ألف ألف حسنة" وغيرها عشرات الاحاديث الدالة على أهمية ومكانة التازر الاجتماعي بين الناس في المنظور الديني الاسلامي . الا ان الحداثة الليبرالية المعاصرة صدرت الى شبابنا وابنائنا فكرة الفردانية والتنحي عن المسؤولية طلبا للراحة والدعة. والسبب في ذلك هو غياب الوعي الديني والثقافي المطلوب ووجود حالة من الانهزامية والهشاشة النفسية امام موجة الاغراق الثقافي والقيمي الغربي. وقد ساهمت الثورة التكنولوجية وشبكات التواصل في انعزال الانسان عن واقعه وتقوقعه في عوالم افتراضية يجد فيها ذاته ويبني فيها علاقاته فانتشرت ظاهرة العزوف عن الزواج وضعف مقومات تشييد اسرة صحيحة متماكة. يقول جيل ليبوفيسكي (نفس المصدر,٣٨)وهو يصف هذا التفكك الاجتماعي " "من لا يزال يؤمن بالعمل حينما نعرف نسب الغياب والدوران الوظيفي، وعندما نرى تزايد الحماسة للعطل وعطل نهاية الأسبوع وأنشطة الترفيه، وحينما تصبح الإحالة على التقاعد تطلُّعًا جماهيريًّا، بل مثلًا أعلى؟ ومن لا يزال يؤمن بالأسرة عندما نرى تزايد نسب الطلاق، وإرسال المسنين لدار العجزة، وعندما يرغب الآباء في البقاء "شبابًا"، ويلجؤون إلى المختصين النفسيين، وعندما تصبح الزيجات "حرة"، وحينما يصبح الإجهاض ومنع الحمل والتعقيم أمورًا مُشرعنةً بقوة القانون؟".

لقد انعكس مفهوم الفردانية سلبا على الشباب المسلم بشكل كبير وخطير, فترى جل اهتمام الشباب والشابات في عصرنا هذا هو تحقيق ذواتهم , والحصول على متعهم الخاصة منفصلين عن قضايا المجتمع

والامة, ومتأثرين بخطابات التنمية البشرية وتحقيق الذات فأصبحت أقصى طموحاتهم هو الحصول على الوظيفة والمال لتحقيق اهدافهم الشخصية وان لم يكن ضمن المعايير الدينية والانسانية والمجتمعية الصحيحة. وقد وصف جون ألترمان هذا الواقع قائلا " ظاهرة الفردانية تتسارع في الشرق الاوسط , فالاجيال الصغيرة لم تعد مقيدة بالروابط الاجتماعية التقليدية, هؤلاء يتجهون نحو تنظيم اجتماعي ذري, فالشباب اكثر قابلية للتنقل, والعائلات مفككة بطريقة أكثر مما كانت عليه من قبل".

المبحث السادس:

السبل المقترحة لمواجهة أزمة غياب الهوية وتفشي الفردانية:

من الاهداف الاساسية للدراسة الحالية هي, الى جانب الوقوف على أصل الأزمة القيمية والثقافية التي يعاني منها الجيل المعاصر في ظل العولمة , إيجاد سبل المعالجة الممكنة التي ينبغي ان تؤخذ في الحسبان للوقوف في وجه هذا التحول السلوكي الخطير من قبل الشباب والمراهقين والمتمثل بغياب الهوية وشيوع الفردانية. وقد أقترحت الباحثة السبل التالية:

أولا: ثقافيا , الاهتمام بعالمية الثقافة دون عولمتها. فلا بأس بالتبادل الثقافي العالمي الذي يعترف بتعدد الثقافات ولا يسعى الى تغييب ثقافة في اخرى تحت هيمنة "الثقافة الغالبة".

ثانيا: التوجيه الأعلامي: فالإعلام يعد احد الركائز الأساسية للعولمة الثقافية وهو السلاح الاول في تدمير هويتنا الثقافية, كما أكد " فوكو باما" بأن العولمة ترتكز على ثلاث ركائز مهمة: تكنولوجيا المعلومات,الأعلام، وحرية التجارة الدولية (بخيرة .ص ٧٣, ٢٠٠٠). فقد أصبحت وجهات النظر العالمية والسلوكيات الثقافية المتنوعة تُطرح بشكل مكثف من خلال الاعلام والفضائيات, وبسبب غياب الوعي الفكري والحضاري والديني الصحيح, بدأت هذع الثقافات تغزو بيوتنا وتشكل وعي افرادنا لذلك ينبغي أن يوجه الاعلام باتجاه المحافظة على هويتنا وقيمنا ومبادئنا من خلال عرض البرامج الثقافية الهادفة والتركيز على المنظومة القيمة والاخلاقية وترسيخها. وهذا العبء ملقى بالدرجة الاولى على الفئة المثقفة في الأمة العربية ، وخاصة القائمين على أمر الإعلام الإسلامي. ونحن نأمل أن يسعى العالم الإسلامي ليس فقط الى ضبط البرامج الفكرية والثقافية داخليا, انما أن ينهض بإعلامه الديني ويصل به إلى العالمية وعكس المعادلة الامبريالية وجعل الثقافة الاسلامية جزء حيوي حاضر في قلب الثقافات العالمية..

ثالثا: التوجيه الأسري: فالأسرة هي عمود المجتمع فإن استقامت استقام الفرد والمجتمع وان سقطت سقط المجتمع بأفراده وسقطت الامة والانسانية جمعاء. ف الأسرة هي الرحم الأول لرعاية الأبناء وحسن توجيههم، وتشكيل قيمهم وضبط سلوكياتهم ، ولا بد من الاهتمام والتركيز على تنشئة الابناء في مراحلهم العمرية المبكرة لأنها تعد الحجر الأساس الذي تتشكل منه شخصيتهم فيما بعد. فالمد الثقافي الغربي الذي غزى بيوتنا يهدف

الى هدم القيم الأخلاقية للأفراد من خلال التحكم بغرائزه وأهوائه ، وذلك من خلال بث المواقع المشبوهة على شبكات الانترنت والقنوات الفضائية. وما لم يتنبه الوالدان بالدرجة الاولى الى ضرورة ضبط وترشيد وتقنين البرامج والقنوات والمواقع التي يرتادها الابناء, فانهم سينجرفوا في سيل من الثقافات والتوجهات الفكرية الخطيرة التي لا تستند الى رؤية شرعية صحيحة. يقول عمار عبد الله ناصح في كتابه أخلاقية العولمة في القرآن الكريم: مقارنة مع أخلاقية العولمة اليوم "قد يقول قائل لماذا خصص القرآن من الفساد فساد الحرث والنسل؟ أقول إن تخصيص القرآن الكريم لفساد الحرث والنسل ما ذلك إلا لتنبيه المسلم إلى أنّ خطر ما تتعرض إليها المجتمعات من قبل المفسدين هي هلاك الحرث الذي يقوم به عماد معاش الأمّة فإذا هلك الحرث بسيطرة المفسدين في الأرض أصبح المفسدون يتحكمون في رقاب العباد فيدر الرزق على من يمشي بركابهم ويمنع عمن يعارضهم من المصلحين

أمّا هلاك النسل فالمفسدون في الأرض دوما غايتهم هدم كيان الأسرة لأنّ نساج الأسرة يجعل المجتمع متماسكا أمام مخططات المفسدين في الأرض الذين يريدون أن تكون الشعوب كالبهائم لا قيم لها ولا أخلاق ولا روابط عائلية، فالعولمة الغربية أهم ما تريده من مجتمعات العالم اليوم بعامة والمجتمعات الإسلامية بخاصة لأنها أكثر المجتمعات تماسكا بالأسرة وبالقيم والأخلاق لتحكم السيطرة عليه". وهذا هو الخطر الأكبر في العولمة الغربية.

ثالثا: تفعيل دور المؤسسات الدينية: فالشباب في عصرنا هذا يعيشوا حالة من البعد والاغتراب عن الدين ورفض للمؤسسة الدينية والخروج عليها وعدم تقبل مقاومتها للتغيير الذي طرأ على المنظومة الاخاقية والسلوكية للمجتمع. وهنا ينبغي التركيز على إيجاد حلقة ربط بين الشباب وبين المؤسسة الدينية من خلال تفعيل دور الفئة المثقفة الملتزمة بتعاليم الدين والواعية لتحديات العصر. وهذا ما تعمل عليه المؤسسة الدينية في حوزة النجف الاشرف من خلال عمل رابطات ومنتديات وانشطة فكرية متنوعة للشباب الجامعي تتضمن القاء المحاضرات التوعوية بقضايا الفكر الغربي وتمثلاته في المجتمع العربي وسبل التصدي له ومواجهته, الى جانب تعزيز الشعور بالانتماء للاسلام وترسيخ مباديء الانتماء الفاعل والتمسك بأصول الدين في المجتمع والحياة عموما.

الخاتمة :

أصبح من الواضح ان ظاهرة العولمة الثقافية ترتكز على فكرة تجاوز الحدود والثقافات والهويات, وإضعاف هوية وثقافات الشعوب المنهزمة (المغلوبة) وتذويبها. فكان من نتاج ذلك المد المتواصل للعولمة ان فقد الشاب هويته الثقافية -المتمثلة في بلداننا العربية بالاسلام- تحت هيمنة النموذج الغربي بسبب حالة الاغراق الثقافي المعولم الذي غزا مجتمعاتنا وأسرنا وعقولنا. فلم تعد مركزية القيم والمبادئ الاصيلة والدين قائمة, إنما استبدلت بالمفاهيم المعولمة من قبيل الحرية الشخصية والديمقراطية والتحرر وغيرها. وحين أستلبت هذه المعاني القيمية المركزية من حياةالافراد كالمروءة والشجاعة والايثار والشعور بالمسؤولية, تفشى لديهم

مفهومالفردانية أو التمركز على الذات الذي أدى اللى ان يكون المرء ضعيف الانتساب الى مجتمعه , هش الشعور بما يدور حوله فضلا عن تحمل مسؤوليته, بعيد عن المفاهيم الكبرى المتعلقة بمصيره ومصير أمته. لذا وجب التفكير في حلول جدية تدافع هذه السيول العارمةمنالمفاهيم المعولمة التي اجتاحت كل جزء من حياتنا للحفاظ على ما بقي من ثقافتنا ومبادئ ديننا ويحمي ابناءنا من سياسة النموذج الواحد للانسان , وهو النموذج الغربي الفاقد للوجهة والهدف.

ووعليه, فمن الضروري إعادة التذكير بفكرة "الاستخلاف الألهي" للانسان في الارض وان الشاب ليس مخلوقا للفراغ والعبث (وهو منطق زمن العبث او السيولة), انما هو خليفة الله في أرضه خلقه لعمارة الارض وتحقيق الكمال الانساني من خلال اتباع الوصايا الالهية التي تضمن له خير الدارين. هذا المبدأ التوجيهي "الخلافة الالهية" إذا أصبح حاضرا في ذهن الشاب تولد لديه الشعور بالمسؤولية تجاه نفسه والاخرين , وهذا هو منطق الاسلام الرافض للفردانية الساعي نحو خير البشر أجمعين.

المراجع

بخيرة ، سعيد .(٢٠٠٠) .العولمة وحرية الإعالم. ظافر لمطباعة . الزقازيق . مصر

بركات ، حليم (.١٩٨٤) المجتمع العربي المعاصر، ط١ .مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. لبنان . ص

الجابري ,محمد عابد (٢٠٠٣). قضايا في الفكر المعاصر – مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت , لبنان .

التريكي, فتحي (٢٠٠٩) الفلسفة الشريدة، دار التنوير, القاهرة.

الحمد, تركي (١٩٩٨). "هوية بلا هوية" بحث قدم في مؤتمر القاهرة عام (١٩٩٨) عن "العولمة وقضايا الهوية الثقافية" . صحيفة المدينة, السعودية.

رسل, برتراند (٢٠١٥) مالذي أؤمن به : مقالات في الحرية والدين والعقلانية. ترجمة دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.القاهرة

السحمرائي, أسعد (٢٠٠٢). ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة. دار نفائس , ط١.

عاشور, مصطفى .(٢٠٢١) الفردانية وأمة الأنسان المعاصر. مقالة منشورة على موقع إسلام أونلاين :

https://islamonline.net/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%AF%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A3%D8%B2%D9%85%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%A7%D8%B5%D8%B1/

عمارة, محمد. (١٩٩٩) مخاطر العولمة على الهوية الثقافية. دار نهظة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

الكحلاني, حسن (٢٠٠٤) الفردانية في الفكر الفلسي المعاصر. ط١. اقاهرة

ليبوفيتسكي , جيل (٢٠١٨) عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة. ترجمة : حافظ إدوخراز. بيروت لبنان, ط١.

محمد بن سمينة (٢٠٠٦) العولمة وأثرها على الثقافة الأسلامية في الجزائر. مجلة الثقافة الاسلامية , السنة الثانية, العدد الثاني ص٧٩-٨٠

المجلسي, محمد باقر (١٤٠٣ه). بحار الأنوار. بيروت, نسخة محفوظة ٠٧ نوفمبر ٢٠١٧ على موقع واي باك مشين..

معطي, بو تخيل (٢٠٠٥) أهم تحديات الأسر الجزائرية والرهانات المطروحة. مجلة الثقافة الأسلامية , السنة الأولى, العدد التجريبي ص ١٤٥

ميل, جون ستيوارت (١٩٩٦). عن الحرية. ترجمة:هيثم كامل الزبيدي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.لبنان

المرسي, كمال الدين عبدالغنى (٢٠٠٥). الخروج من فخ العولمة، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى.

المسيري, عبد الوهاب. (٢٠١٣) العلمانية والحداثة والعولمة . دار الفكر, دمشق. ط١

-المشاي ، أبو القاسم . ٢٠٠٤ السلم االاجتماعي وصراع الهويات " . مجلة تدا. العدد الثاني . ص ١٦ – ١٧

هوبر, بول . (٢٠١١). نحو فهم للعولمة الثقافية. القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب. ترجمة طلعت الشايب مركز دراسات الوحدة العربية

هندي, صالح (١٩٩٩). الثقافة الاسلامية. دار الفكر للثقافة والنشر والتوزيع, عمان..

محمد, زغو. (٢٠١٠). أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب. الأكاديمية للدراسات الأجتماعية والأنسانية ٤. ص ٩٣-١٠١

English resources.

Kobrin, Stephen. (1998). "Back to the future: Neo medievalism and the postmodern digital world economy ". Journal of International Affairs 51, no2, 361-86

Ohmae ,K. (2005).The Next Global Stage, Challenges and Opportunities in Our Borderless World, Wharton school publishing.

Robertson, R. (1992). Globalization: social theory and global culture. London: SAGE.